

التجربة الشبابية في فلسطين

مراد جاد الله\*

## مستقبل الحراك الشبابي الفلسطيني ودوره في القضية الفلسطينية

السنوات من شوائب.  
وهذه المقالة تتناول مستقبل القضية الفلسطينية في ظل الحراك الشبابي الفلسطيني الذي أعلن نفسه في ١٥ آذار / مارس ٢٠١١، رافعاً شعارات عديدة كان من أهمها "الشعب يريد إنهاء الانقسام والاحتلال"، و"الشعب يريد انتخاب مجلس وطني جديد".

يوم الخامس عشر من آذار / مارس

وفرت انتفاضات الشعوب العربية التي انفجرت في وجه القهر والهدر والاستبداد الأرضية الخصبة للشباب الفلسطيني، للنزول إلى الشارع بعد طول غياب وتغييب عن الفعل السياسي كي يرفعوا مطالب متعددة تعبّر عن توقهم إلى التخلص من الاحتلال، وكان الشعار الغالب بينهم: "الشعب يريد إنهاء الانقسام"، إدراكاً منهم أن الانقسام الفلسطيني - بصرف النظر عن

هاملت الفلسطيني

منذ أعوام طويلة والشباب الفلسطيني "مفجر الثورات"، كما يقال، يرتدي ملابس هاملت السوداء، زاهداً في الحياة، ومتجنباً رفاقه، ورافضاً المشاركة في نشاط البلاط، تكتسحه مشاعر الخيبة من أمه التي تزوجت عمه "كلوديوس" قاتل أبيه، ومن حبيبته "أوليفيا" التي كانت تستغل عاطفته للإيقاع به منحازة إلى صف أبيها "بولونيوس" مستشار عمه "كلوديوس" الذي أصبح الملك الجديد. بهذا المجاز، يمكن تصوير حال الشباب الفلسطيني "هاملت" صاحب الموقف الذي يقوي عقله بالإيمان، ويغذي إيمانه بالعقل<sup>١</sup>.

وكما تخلى "كلوديوس" من الملك هاملت الأب، تخلت السلطة الفلسطينية فعلياً من منظمة التحرير ومشروعها التحرري، وانصرفت إلى بناء سلطة تحت الاحتلال بكل ما علق بهذا المشروع عبر

\* ناشط سياسي شبابي، رام الله.

إلى غضب الشباب الفلسطيني وحنينهم، وإن اختلفتا في توصيفهما ومقاربتهما وتصويرهما تارة كأنهما تقليد أعمى للانتفاضات العربية، وتارة باعتبارهما يجسدان ميولاً انتحارية عبثية كما في ذكرى النكبة والزحف إلى حدود الوطن. وتعاملت السلطتان مع دعوة الحراك الشبابي إلى إعادة ترتيب البيت الفلسطيني بعيداً عن المحاصصة والتقسام، بصفتها بحثاً عن السطوع والشهرة.

غير أن هذا ليس الأخطر، بل إن حصاد عشرين عاماً من الهيمنة السياسية والاقتصادية والمعرفية والإعلامية والثقافية، وما أنتجه نهج التسوية من سلطة تقترب في هياكلها وسلوكها من مثيلاتها في المنطقة، فعلا فعلهما في سلب الناس فطرتهم في الأمل والإيمان والإرادة للفعل والتغيير والعمل الجماعي.

## مطلب مجلس وطني فلسطيني

### جديد

الأفعى التي اقتنصت الحياة من أبيك  
تعتمر الآن تاجه  
هاملت الملك لابنه الأمير هاملت

على الرغم من كثرة الشعارات التي رفعت في ١٥ آذار / مارس ٢٠١١، فإن مطلب انتخاب مجلس وطني جديد كان بارزاً كونه يمثل فهماً أعمق وتصوراً أوضح للتخلص من الانقسام، وإن كان غير قادر أيضاً على دب الحماسة في نفوس الفلسطينيين للصمود في الشوارع.

ومع ذلك، وعلى الرغم من عدم كون ذلك الشعار شعاراً طرح يوم ١٥ آذار / مارس، وإنما سبق أن أقرّ في "وثيقة الأسرى" في سنة ٢٠٠٦، إلا إنه كان الشعار الذي يقدم

مفاعيله - هو ضمانه لاستمرار الاحتلال، بل هو، أبعد من ذلك، يشكل تفریطاً في حرية الشعب وأرضه وحقوقه التاريخية والوطنية والديمقراطية.

وعلى الرغم من تدفق الشباب والناس إلى الشوارع في ١٥ آذار / مارس، فإن وهج الشعار سرعان ما خفت، وتبين ضعف قدرته على الاستقطاب وعلى حشد الجموع الغفيرة وصمودها للبقاء في الشارع لأسباب كثيرة، منها الإفراط في افتراض حسن النية ممزوجةً بالاتكالية، والاعتقاد أن "القيادة الفلسطينية" التي تسببت بالانقسام، أو تلك التي لم تنجح في رأبه، قادرتان على أعمال الإرادة لطبي صفحته، وإيجاد الأليات الملائمة للبدء باستعادة الوحدة الفلسطينية، والتحضير لخوض معركة التحرر من الاحتلال، برؤية واحدة واضحة، تستنفذ طاقات الشعب، وتحترم إرادته، وتحقق تطلعاته في الحرية والعدالة والكرامة. ومع ذلك، فإنه لا يجوز التقليل من أهمية ما تعرضت له الجموع الشبابية من قمع واحتواء حين رمت أجهزة "السلطة" في "الضفة المحتلة وغزة المحاصرة" ثقلها كلها للسيطرة على الميادين، فكانت معادلة القمع في جناحي الوطن. وما اختلاف أشكال القمع إلا انعكاس لبنية السلطتين الأمنية لا غير.<sup>٢</sup>

فبينما اتكأت سلطة الضفة الغربية على ما راكمته من خبرة أمنية تحت وطأة التنسيق الأمني مع إسرائيل، من دون أن تغفل عن توظيف خبرتها التنظيمية في تفعيل "الأطر الشبابية" في وقت الحاجة إليها، بغرض تشتيت الرسالة ونقل الكرة إلى "ملعب الخصم"، تعاملت سلطة غزة مع التظاهرات كأنها "انقلاب برتقالي" بعد محاولة احتواء فاشلة.

وفي المحصلة، تساوت نظرة السلطتين

الشباب الفلسطيني حول قضيتهم الوطنية الجامعة، ودخل هذا الحراك في حالة كمنون، وتراجع الزخم الذي حققه في المناسبات السابقة، وبدأ أن اتفاق المصالحة الذي وقّع في ٤ أيار/ مايو ٢٠١١، ليس بعيداً عن ميدان التحرير في القاهرة، وأنه استطاع احتواء الحراك الشبابي الفلسطيني.

### غياب الرؤية الجامعة للحراك الشبابي

كشف اتفاق القاهرة حقيقة ضعف طرفي الانقسام الفلسطيني ("فتح" و"حماس") أكثر من رغبتهما في البحث عن مكان القوة الفلسطينية، كما كشف أن مجموعات الحراك الشبابي الفلسطيني لم تبحث هي الأخرى عن مكان قوتها، ولم تتدارك أسباب ضعفها، وإنما تقاعست عن بلورة رؤية واضحة وموحدة تقوم على مبادئ مشتركة تحدد أهدافاً واستراتيجيات للعمل المشترك، الأمر الذي أثار شكوكاً كبيرة في شأن مستقبلها وقدرتها على الصمود، فضلاً عن قدرتها الاستقطابية على التحول إلى حركة جماهيرية شعبية. فالحراك الشبابي الفلسطيني لم يولد من العدم، وإنما من واقع فلسطيني معقد تحتل فيه الحزبية والفصائلية المقيتة - في بعض الأحيان - مكانة راسخة، علاوة على ما يتعرض له الشباب الفلسطيني، من جهة أخرى، من صهر وتسطيح للوعي بفعل نمط النظام المعرفي والقيمي الذي أصبح مهيمناً بعد تراجع فعل المقاومة وثقافتها. وفي خضم هذا التراجع، حافظ الحراك الشبابي المستقل - وهو أحد مجموعات الحراك الشبابي الفلسطيني - على نشاطه المستمر، ولم يترك مناسبة تمر من دون

تصوراً متكاملًا لكيفية استعادة منظمة التحرير وتفعيل مؤسساتها كلها، وإعادة ترتيب البيت الفلسطيني بما يضمن تمثيل الكل الفلسطيني في أماكن وجوده كافة، ويعيد إلى الشعب قضيتة كي يمارس حقه في تقرير مصيره وخياراته بعيداً عن حسابات السلطة والفئوية، وبما يشكل قطعاً مع الهيمنة السياسية والإقصاء السياسي. كما أن هذا الشعار يفضي في نهاية المطاف إلى استعادة الحركة الوطنية الفلسطينية دورها الطبيعي كحركة تحرر وطني ديمقراطي، وإلى تحرر القرار الفلسطيني من قيود الاتفاقيات الموقعة مع العدو الصهيوني، والمساعدات الدولية المقدمة أساساً لدعمها (السلطة الفلسطينية)، ولا سيما أن هذه المساعدات تؤدي دوراً كبيراً وخطراً في ابتزاز المجتمع الفلسطيني وفرض قيود سياسية على قياداته.

### يوم الخامس عشر من أيار / مايو

مرة أخرى، استفاد الشباب الفلسطيني من انتفاضات أمتهم العربية، واستطاعوا أن يستثمروها في سياق خدمة قضيتهم المركزية، ألا وهي مقارعة الاحتلال ودحره عن أرضهم وتحقيق عودتهم. فزحف الشباب الفلسطيني في الشتات إلى الحدود مع فلسطين المحتلة قادمين من لبنان وسورية والأردن، كي يكتمل المشهد في الضفة الغربية التي خرجت منها تظاهرات ضخمة في اتجاه الحواجز الاحتلالية التي تقطع أوصال الضفة الغربية وتفصلها عن قلبها النابض، مدينة القدس المحتلة. ولم يختلف المشهد في قطاع غزة التي خرجت في تظاهرات نحو أراضي فلسطين التاريخية. وبعد مسيرات ١٥ أيار / مايو، لم ينظم الحراك الشبابي فاعليات قادرة على حشد

قاطرتهم أسقطت من القطار الفلسطيني. ولهذا، يخرج الشباب كي يدافعوا عن أنفسهم ومدينتهم ووجودهم ومستقبل قضيتهم، ويستشهد الفتى ميلاد عياش عشية ذكرى يوم النكبة. وعند بدء الحركة الأسيرة، الفلسطينية إضرابها المفتوح عن الطعام، والذي بدأ في ٢٧ أيلول / سبتمبر واستمر إلى ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١١، دلت مدينة القدس على تحفزها وقدرتها العالية على الانخراط في هموم الحركة الوطنية، ورافعتها الحركة الأسيرة الفلسطينية، فانطلقت مسيرة شارك فيها المئات من مناصري الحراك الشبابي المستقل وأهالي المعتقلين المقدسيين من باب العمود إلى مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي في حي الشيخ جراح في مفارقة واضحة أظهرت ضعف التفاعل الشعبي والجماهيري، وحتى الشبابي، مع إضراب الأسرى في بقية الأرض المحتلة.

وشكل إضراب الأسرى محطة فارقة في صيرورة الحراك الشبابي الفلسطيني، وأثبت صدق العلاقة الجدلية بين النهوض المجتمعي واستنهاض مكونات الحركة الوطنية، فكان نقلة نوعية كشفت عن حجم الطاقات القابلة للانفجار. وليس أدل على ذلك من مبادرة مجموعة "جائعون للحرية" في الداخل الفلسطيني إلى تنظيم وقفة تضامنية في مدينة حيفا مع إضراب الأسرى في سجون الاحتلال، وصل عدد المعتصمين فيها إلى ما يزيد على آلاف المعتصمين من أبناء الداخل.

كما شكل إضراب الحركة الأسيرة عن الطعام مناسبة كي يطالب الحراك الشبابي الفلسطيني (في الضفة والقطاع والداخل) بالمسارعة إلى إنهاء الانقسام الفلسطيني الذي ينعكس سلباً على وحدة الحركة الأسيرة، داعياً إلى إعادة ترتيب البيت

أن ينزل إلى الشارع بعيداً عن الانشغال كثيراً بحجم المشاركة الشعبية في وقفاته المتعددة، وفق فهم يقول بضرورة المحافظة على ما تحقق من توسيع لهامش الحريات والتعبير، وبغرض رفع سقف الخطاب السياسي اعتماداً على التظاهرات والوقفات والبيانات كشكل من أشكال الرقابة والمحاسبة الشعبية والتصدي لصهر الوعي، وذلك بإحياء المناسبات الوطنية وفق نهج ينقلب على النضال الكرنفالي المحتفي بالهزائم.

على أن الحالة الفلسطينية، والربيع الفلسطيني، لا يمكن قياسهما ومحاسبتهما وفق معايير انتفاضات الشعوب العربية الأخرى التي اعتمدت في نجاحها على المسيرات المليونية، نظراً إلى خصوصية الواقع الفلسطيني الذي يعيش فيه الإنسان الفلسطيني قهراً مزدوجاً تحت سلطة هجينة تمارس دوراً واحداً من أدوار الدولة وهو احتكارها للعنف - الذي تحدث عنه ماكس فيبر - في ظل احتلال استعماري مستمر. لكن غياب الرؤية الناظمة للحراك الشبابي الفلسطيني في الضفة الغربية لم يعق الحراك الشبابي في مدينة القدس عن مواصلة المحاولة في استنهاض بقية الأرض الفلسطينية المحتلة لأسباب تتصل حتماً بما تتعرض له القدس من هجوم صهيوني مجنون لتهودتها، وكذلك لغياب الدور التمويهي الذي تمارسه السلطة الفلسطينية في توصيف الصراع، وتدني المشاركة الحزبية، وبالتالي حدة الصراعات الفصائلية بين أهلها.

فالناس في القدس لا ينتظرون حلاً سلمياً، ولا وقت لديهم ربما لانتظار خريطة طريق تقرر شكل مقاومتهم، ذلك بأن سرعة مخططات دولة الاحتلال تفرض إيقاعها على المقدسيين الذين باتوا يشعرون بأن

إلى عمل المؤسسات الحقوقية والخاصة بالأسرى التي وجدت في الحراك الشبابي رافعة مهمة لمطالبها وحملاتها التضامنية مع الأسرى. والأمر ذاته ينطبق على المؤسسات الوطنية الداعية إلى مقاطعة دولة الاحتلال.

وساهم الأداء المترهل والعاجز للقيادة الفلسطينية على جميع الصعد في تقريب وجهات النظر بين المجموعات الشبابية. ومع مرور الوقت أخذت تترسخ لديها قناعات بأن العمل (البؤري المحدود) يحقق نتائج يمكن مضاعفتها إذا ما تضافرت الجهود، وإذا ما جرى صهرها في إطار نظري يدمج البعدين الوطني التحرري والاجتماعي الديمقراطي. وشكل التصدي للتطبيع مفتاحاً لتوحيد الجهود والنهوض مجدداً، وكانت البداية من القدس، باعتصام ١٢ كانون الأول / ديسمبر الماضي، الذي عمل فيه الحراك الشبابي الفلسطيني مع القوى الوطنية ومؤسسات المجتمع الأهلي على التصدي للقاءات ما يسمى "الكونفدرالية الفلسطينية - الإسرائيلية"، وإفشالها في القدس وبيت جالا وحيفا، كي تتوالي الوقفات بعدها ضد التطبيع بجميع أشكاله، وما يعرف بوثيقة جنيف والحفلات الموسيقية التي تستضيف الصهيونيين، أو من يدعمهم.

وقدم كسر القيادة الفلسطينية، في ٣ كانون الثاني / يناير ٢٠١٢، موقفها الرافض للعودة إلى المفاوضات وفق الشروط التي ألزمت نفسها بها سابقاً، مناسبة للحراك الشبابي الفلسطيني كي يرفع سقف مطالبه، ويصوغها بطريقة حازمة وواضحة في اعتصامات أمام "المقاطعة"، مقررئاسة السلطة الفلسطينية. فقد اعتبر هذا الحراك موقف السلطة إذعاناً للضغوط الخارجية التي مارستها أطراف اللجنة الرباعية الدولية والسلطة الأردنية، واستخفافاً

الفلسطيني عبر انتخاب مجلس وطني جديد يضطلع بمهمة بلورة استراتيجية فلسطينية كفيلة بالانتصار لعدالة قضية الأسرى وتحقيق حريتهم.

### القنديل الذي سترى في ضوءه العالم.. عليك أن تشعله بنفسك<sup>٣</sup>

كان من الطبيعي أن تتعدد شعارات الحراك الشبابي الفلسطيني، ولم يكن منتظراً أن تتفق على رؤية واحدة في فترة وجيزة، على الرغم من أهمية التوحد بين مختلف مكونات هذا الحراك. غير أن ما جرى فعلياً هو تزايد أعداد المجموعات الشبابية، فما إن تخبو واحدة حتى تظهر أخرى ترفع شعارات جديدة وأولويات متعددة تنوعت بين الوطني والتحرري والاجتماعي والاقتصادي. وكان من أهمها ترتيب البيت الفلسطيني، وتحقيق الوحدة الفلسطينية عبر انتخابات مباشرة للمجلس الوطني الفلسطيني، وتوسيع المقاومة الشعبية، والتصدي لاعتداءات المستوطنين.

لقد فرض الحراك الشبابي الفلسطيني نفسه على الساحة السياسية والثقافية والإعلامية الفلسطينية، ودب الحركة داخل الفصائل والأحزاب، وقرع الجرس (بمواقفه وتظاهراته وبياناته ودعواته)، الأمر الذي حملها على مراجعة نفسها ومواقفها، وإعادة تفعيل أطرها الشبابية في القضايا التي عمل الحراك الشبابي الفلسطيني عليها.

كما استطاع الحراك أن يقدم نموذجاً يستحق التطوير في العمل التطوعي والمتحرر من التمويل، الأمر الذي ساهم في زيادة الإنتاج الفني النقدي لأداء القيادات الفلسطينية، مستفيداً أيضاً من علو صوت الحراك ومواقفه المتقدمة. وامتد ذلك أيضاً

منظمة التحرير الفلسطينية "أمه"، من خطيئة علاقة التبعية مع السلطة الفلسطينية، يمثل حالة نهوض فلسطينية للحفاظ على البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية التي تتعرض للتصفية الجسدية والمعنوية.

ويمكننا القول، اليوم، إن هذا الحراك بمقارعتة الاحتلال، ووقوفه في وجه التفريط في الحقوق الفلسطينية والعبث فيها، وعمله على قضايا وطنية متعددة، وتصديه للاعتقال السياسي، ورفع الصوت ضد التنسيق الأمني مع الاحتلال، والمطالبة بالتخلص من نتائج الانقسام المدمرة على المجتمع الفلسطيني ومستقبله، أمور كلها باتت تؤدي دور الحارس للثوابت والحقوق الفلسطينية بعدما تعرضت للتآكل جزاء نهج التسوية، وفشل مناهضي هذا النهج في بلورة بديل واضح يراعي طاقات الناس ويحترم خياراتهم وتطلعاتهم.

ومثلما يشكل الحراك الشبابي العربي في تونس ومصر واليمن قوة ضغط على الفاعلين السياسيين، وضمانة للحيلولة دون التفافهم على مطالب الثورة وحقوق الشعوب، فإن الحراك الشبابي الفلسطيني الذي استطاع أن يصمد ويحافظ على نفسه من الانصهار أو القولية، مطالب اليوم بتعميق حواراته ومناقشة قراءاته للواقع الفلسطيني بهدف إجراء مراجعة نقدية شاملة للاستراتيجيات الفلسطينية (استراتيجيات التفاوض والمقاومة)، وبناء الثقة بين مختلف مكوناته، والسمو فوق الاعتبارات الحزبية والفصائلية لمنع الانهيار والتسليم والحفاظ على البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية على الصعد كافة.

فهاملت الفلسطيني يكون عندما يقدم نموذجاً جديداً في العمل الوطني،

بالشعب الفلسطيني، ونسفاً للمصالحة، وتفريطاً في الوحدة، وتجاهلاً للإرادة الشعبية.

وشكلت تكون مجموعة "فلسطينيون من أجل الكرامة"، وثبة أخرى للحراك الشبابي الفلسطيني، فقد ضمت هذه المجموعة مجموعات شبابية متنوعة أخذت على عاتقها العمل على ممارسة الضغط على القيادة الفلسطينية: رئاسة السلطة الفلسطينية واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ومطالبتها بوقف المفاوضات فوراً، وتحمل مسؤولياتها التاريخية والوطنية أمام شعبها.

## آفاق الحراك الشبابي الفلسطيني في ظل استراتيجيا الخيار الواحد

يتضح يوماً بعد يوم مدى المأزق الذي تعيشه القضية الفلسطينية، وفشل "استراتيجيا السلام" التي تبنتها القيادة المهيمنة في منظمة التحرير الفلسطينية، وفشل البقية في وقفها أو طرح بديل منها يقود الشعب إلى حريته. وكان لعملية السلام أن دفعت منظمة التحرير إلى استبدال شرعيتها الثورية بشرعية مستمدة من اتفاق أوسلو، والاعتراف بها كمفاوض ومحاوّر مقبول للممسكين بخيوط النظام الدولي السائد. ولم تخسر منظمة التحرير شرعيتها وقرارها فحسب، بل ميثاقها وكيانيتها لمصلحة اتفاقيات "السلام" أيضاً، وكذلك سلطة تأكلت شرعيتها الدستورية والشعبية أكثر من مرة منذ فترة ليست قصيرة. ومن هنا يمكن لنا استشراف آفاق الحراك الشبابي الفلسطيني ودوره في القضية الفلسطينية. فهذا الحراك الحزبي النبيل الذي يعمل على إنقاذ إطاره الجامع،

ولا بد لهذه الاستراتيجية من أن تُبنى على خطاب سياسي وثقافي يعلو فوق القطرية، ويكون متحرراً من الاستعمار المعرفي، ويعيد إلى القضية الفلسطينية بعدها العربي والأممي كقضية عادلة ومركزية لتحقيق الأمن والسلم الدوليين. ولا بد لهذه الاستراتيجية من أن تنتصر للحق المشروع للشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال بأشكالها جميعاً، كما كفلها القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان، وذلك بالتوازي مع رفض يهودية دولة الاحتلال، وإعادة الاعتبار إلى تصنيف الحركة الصهيونية كحركة عنصرية، الأمر الذي يؤسس للعمل على عزل دولة الاحتلال ونزع الشرعية عنها باعتبارها كياناً استعمارياً عنصرياً لا يمت بصلة إلى المشرق العربي وتاريخه ومستقبله. ■

ويكرس القيادة الجماعية الديمقراطية، ويؤسس على قيم العمل المخلص والمتفاني والخلاق، وعلى إنكار الذات والتضحية، الأمر الذي يعيد إلى الناس الثقة بأنفسهم وفيما بينهم وبينه، وهو ما سيمكّنه من ضرب جذوره في مجتمعه الفلسطيني طبقياً وقطاعياً وجغرافياً. ومع إثباته بالعمل الجماعي والإنجازات - مهما تبدت صغيرة - أن استنهاض جميع مكونات وقطاعات الحركة الوطنية الفلسطينية هو الخلاص، وأن التغيير ممكن، وأن تعرية خطاب الثورة المضادة، أمر ملح، بل لا طريق غيره، حينها يصبح قادراً على الوصول إلى استراتيجية مقاومة فلسطينية جديدة، بروافع جديدة، تسخر طاقات الشعب الفلسطيني وتعيد إليه إيمانه بقدرته على ممارسة حقه في تقرير المصير.

## المصادر

- ١ صافي ناز كاظم، "كلام عن مسرحية 'هاملت' لشكسبير"، جريدة "الشرق الأوسط"، ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥.
- ٢ ما سمّاه الشباب حينها "القمع الناعم والقمع الخشن".
- ٣ إبراهيم نصر الله، "قناديل ملك الجليل - الملهاة الفلسطينية" (بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، ٢٠١٢)، ص ٨٥.
- ٤ هذه الشروط هي: وقف دولة الاحتلال لسياسة الاستيطان؛ إقرار مرجعيات جديدة للمفاوضات قوامها قرارات الشرعية الدولية؛ الإفراج عن الأسرى من سجون الاحتلال.